

محكي الحلم في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان

Dream Discourse in: Maout saghir by Mohammed Hasan Alwan

* رزيقة بوشلقية

Razika Bouchelkia

مخبر تحليل الخطاب

جامعة مولود معمري- تيزي وزو (الجزائر)

(Algeria) Mouloud Mammeri University of Tizi Ouzou

razika.bouchelkia@ummtto.dz

تاريخ النشر: 2026/09/02

تاريخ القبول: 2026/07/14

تاريخ الإرسال: 2026/03/16

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة محكي الحلم في رواية موت صغير للروائي محمد حسن علوان، والكشف عن الأبعاد الفنية والدلالية التي يؤديها الحلم داخل البنية السردية للرواية. كما يسعى إلى بيان كيفية توظيف الأحلام في بناء الشخصيات، واستشراف التحولات النفسية والروحية التي عاشها بطل الرواية، إضافة إلى إبراز العلاقة بين الحلم والتجربة الصوفية التي تشكل جوهر العمل الروائي. لذا حرصت دراستنا على الولوج إلى الرّم الدلالي السردى لرواية "موت صغير"، من خلال سؤال مركزي هو: كيف فَعَلَ الرّوائي السّعودي "مُحمّد حسن علوان" في روايته محكي الحلم؟ وما وظائف الحلم في تحقيق المقام العرفاني؟ وكيف أسهم هذا النوع من المحكي في تشكيل البناء السردى والدلالي؟ والذي بدوره تتفرع عنه مجموعة من الأسئلة، من بينها: ما الوظائف السردية التي يؤديها الحلم داخل الرواية؟ وكيف يتداخل الحلم مع الواقع في التجربة الصوفية؟ وإلى أي مدى استطاع الكاتب توظيف الأحلام للكشف عن البعد النفسي والفلسفي للشخصيات؟

فجاءت أهمية ورقتنا البحثية في كونها تسلط الضوء على تقنية سردية بارزة في الرواية العربية المعاصرة، تتمثل في محكي الحلم، بوصفه أداة فنية وجالية تسهم في تعميق الدلالة وإثراء البنية الحكائية. كما تستمد الدراسة أهميتها من خصوصية المتن الروائي المدروس، حيث حازت الرواية حضوراً نقدياً واسعاً، إذ تمثل نموذجاً للرواية التفاعلية الافتتاحية التي تمزج بين التاريخ والتصوف والتخييل السردى، ما يجعل دراسة الحلم فيها مدخلاً مهماً لفهم أبعادها الفكرية والجمالية والصوفية. الكلمات المفتاح: سرد صوفي؛ حلم؛ موت صغير؛ حكي.

Abstract :

The aim of this research is to examine the dream narrative in the novel A Small Death by the Saudi novelist Mohammed Hassan Alwan, and to explore the artistic and semantic dimensions that dreams perform within the narrative structure of the novel.

The study also seeks to demonstrate how dreams are employed in character construction, to trace the psychological and spiritual transformations experienced by the protagonist, and to highlight the relationship between dreams and the Sufi experience that forms the essence of the novel.

The research problem can be formulated as follows: How did the dream narrative contribute to shaping the narrative and semantic structure of the novel *A Small Death*? From this main question arise several sub-questions, including: What narrative functions do dreams perform within the novel? How do dreams intersect with reality in the Sufi experience? And to what extent did the author succeed in using dreams to reveal the psychological and philosophical dimensions of the characters?

The significance of this research lies in the fact that it sheds light on a prominent narrative technique in contemporary Arabic fiction, namely the dream narrative, as an artistic and aesthetic device that contributes to deepening meaning and enriching the narrative structure. The study also derives its importance from its focus on a novel that has received broad critical attention, as *A Small Death* represents a model of fiction that combines history, Sufism, and imaginative narration, making the study of dreams within it an important gateway to understanding its intellectual and aesthetic dimensions.

Keywords: *Sufi Narrative; Dream; A Small death; Narrative .*



. مقدمة:

يُعدّ محكي الحلم في السرد الصوفي العربي من أبرز التيمات السردية التي تجسد العلاقة العميقة بين الإنسان والعالم الغيبي، وبين التجربة الباطنية والرمز العرفاني، إذ إنّ التصوف في جوهره تجربة روحية قائمة على المجاهدة والكشف والسلوك نحو الحقيقة المطلقة، وهو ما يجعل الحلم والرؤيا من الوسائط التعبيرية الأساسية التي يستعين بها المتصوف للتعبير عن تجاربه الوجدانية والروحية. فالحلم في الخطاب الصوفي لا يُنظر إليه بوصفه حادثة نفسية عابرة، وإنما باعتباره مجالاً للكشف والإلهام، ومنفذاً تتجلى من خلاله المعاني الخفية التي تعجز اللغة المباشرة عن احتوائها والإفصاح عنها. ومن هنا اكتسب الحلم مكانة مركزية داخل المتن الصوفي، سواء في النصوص التراثية أم في النصوص السردية الروائية المعاصرة التي أعادت استثمار الرمز الصوفي وأبعاده الجمالية والدلالية.

وقد شهدت الرواية العربية المعاصرة انفتاحاً ملحوظاً على المرجعية الصوفية، حيث عمد عدد من الروائيين إلى توظيف التجربة العرفانية داخل البنية السردية، لما تتيحه من إمكانات رمزية وفلسفية وجمالية قادرة على تعميق الرؤية

الفنية للنص الروائي. وفي هذا السياق تبرز رواية موت صغير للروائي محمد حسن علوان بوصفها من أهم الأعمال الروائية التي اشتغلت على التجربة الصوفية من منظور سردي حديث، حيث استعاد الكاتب شخصية المتصوف الكبير محيي الدين بن عربي، وسعى إلى إعادة تشكيل سيرته الروحية والإنسانية داخل فضاء تخيلي يمزج بين التاريخ والتصوف والتخييل السردى. وقد استطاع الروائي -أيضا- من خلال هذا العمل أن يخلق نصا سرديا غنيا بالإشارات الرمزية والرؤى الحلمية التي تتداخل فيها مستويات الواقع والخيال والكشف الصوفي، ما يجعل الحلم عنصرا بنويا فاعلا في تشكيل المعنى الروائي.

وانطلاقاً من ذلك، تتأسس هذه الدراسة على تتبع ظاهرة الحلم في السرد الصوفي من خلال رواية موت صغير، ومحاولة الإنبات العميق إلى النص الروائي العربي بوصفه فضاء تتقاطع فيه التجربة الصوفية مع الرؤية الجمالية الحديثة. فالرواية لا تكتفي باستحضار التصوف باعتباره مادة تاريخية أو خلفية فكرية، بل تعمل على تفعيل البرنامج السردى الصوفي الذي يقوم على الرحلة الروحية والسعي نحو المعرفة العرفانية، حيث يتحول الحلم إلى وسيلة للكشف عن التحولات النفسية والوجدانية التي يعيشها البطل في مساره نحو العشق الإلهي.

ويكتسب الحلم في الرواية بعداً دلالياً وجماليّاً بالغ الأهمية، إذ يتجاوز وظيفته التقليدية المرتبطة بالاستشراف أو التنبؤ، ليصبح أداة لإعادة بناء العالم الداخلي للشخصيات، والكشف عن صراعاتها الروحية وقلقها الوجودي، فضلاً عن دوره في تعميق البنية الرمزية للنص. فالأحلام والرؤى التي تتخلل الرواية تشكل لحظات كشف عرفاني تتداخل فيها الحقيقة بالرمز، والواقع بالخيال، ما يمنح النص بعداً تأويلياً مفتوحاً على قراءات متعددة.

1. ملحق: ملخص الرواية: رحلة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (*)

رواية "موت صغير" رواية كتبها الروائي السعودي محمد حسن علوان، صدرت أول مرة عام 2016م عن دار نشر الساقى في لندن، وقد فازت بجائزة البوكر العالمية عام 2017، تقع الرواية في 592 صفحة، وهي تروي سيرة خيالية لحياة المتصوف محي الدين بن عربي، منذ مولده في بلاد الأندلس حتى وفاته في دمشق في بلاد الشام في القرن السادس هجري. كان السارد ينتقل في رحلته الخيالية من خلال الأحلام بطريقة عارفة بين الحقيقة والخيال، وكان يقود ذهن القارئ ويوجه تفكيره دون ضياع، -ويجب أن نؤوه أن الرواية تسير في زمنين مختلفين، الأول: مسار سيرة ابن عربي كما حدده وعينه محمد حسن علوان، منذ ولادته بـ "مرسية" إلى وفاته بالشرق، في مدينة حلب، مروراً بترحاله الدائم، من الأندلس والمغرب والحجاز والشام ووسط آسيا، والثاني: مسار سيرة المخطوط، التي بدأت في عام 1212 م في أذربيجان، وانتهت في بيروت مع نازح سوري عام 2012 م، أي ما يقارب الـ 800 عام-.

تبدأ أحداث قصة حياة السالك محي الدين بن عربي، حول العشق الإلهي وحبّه للذات الإلهية، من خلال الجملة الصوفية الآتية: « طَهَّرْ قَلْبَكَ » فهي الجملة المفتاحية التي أوصت بها "فاطمة القرطبية" الشيخ محي الدين بن عربي، تلك السيدة التي ربّته وأحبّها، فكان لها ابناً وتلميذاً، ولم يتحقق الكشف والبصيرة -عنده- إلا بعد مكابدات (تطهير القلب)، فشُدَّ قلبه بالأوتاد حين قال ابن عربي: « وقد ثبت الله قلبي بالأوتاد الأربعة » (*). فامتلاّت حياة السالك بالأحلام والأسفار والترحال، بأمرٍ من ربه، يقول: « كُتْ نائماً عندما بايعتني القوى العلوية في الليلة التي سبقت خروجي من ملطية، جذبتني فارفتعت عن فراشي معلقاً في الهواء قيد شبر محمولاً بإرادة العزيز الجبار، لم تكن جذبة

مفاجئة بل انتظرث حدوثها في أي لحظة منذ أن أكملت طوافي على أوتاد الأرض طوفاً كُتِبَ عليّ قبل ولادتي^(*)، ويُضيف -مؤكدًا- أن ما يقوم به هو وحي من الله، تتجلى له داخل أحلام اليقظة، قائلاً: «ثم يكشف الله لي ما يأمر به عبده الفقير إليه المنقطع إلا منه، يأمرني أن أكتب كتابًا وأكشف علمًا وأصحب شيخًا وأحمل مريدًا وأخلو عندما أحتاج إلى الخلوة وأجلو عندما تحلّ الجلوة، كلّ ما أفعله في طريقي إلى الله هو أمره وتديره: السهل والشاق، الفرح والحزن، الحل والترحال، العلم والشطح، الحرف والزّعم، الكلام والشكوت»^(*)، فلا يتحقّق الكشف عند السالك الصوفي إلا بعد مكابدات ومشقات، ففضى محيّي الدين بن عربيّ حياته في الرحل والترحال، حيث سافر من الأندلس في الغرب إلى أذربيجان في الشرق، ومَرَّ بالمغرب ومصر والحجاز وبلاد الشام والعراق وتركيا في طريقه، وعاش في هذه الرحلة الطويلة إحدى تجارب الصوفية العميقة، التي أصرَّ بن عربيّ على تحمّل مكابداتها في ظلّ روحه المضطربة وقلقه الدائريّ الوجودي الدائم، فتحكي هذه الرواية كلّ تفاصيل هذه الرحلة المختلة، حيث اهتم الكاتب علوان بـ"ابن عربيّ" كإنسان وعين كلّ التحوّلات الحياتية، فنقل أحداث حياته منذ صباه، مرورًا بشبابه كعاشق، ثمّ شارب خمر، ومتفكّرًا، ومن ثمّ معتكفًا في المقابر لأيام طويلة، ففعل الكاتب علوان من شعرية التفاصيل اليومية، منذ مولده ونشأته، ويوميات عائلته، وأصدقائه، شيوخه وقلقه، خوفه وانحرافه، وحبّه وغرامه. منذ زواجه الأول وإنجاب زينب ابنته الوحيدة التي خلف موتها جرحًا غائرًا في قلبه، ومن ثمّ انتقاله إلى مكة، وفي فيها كتب كتابه الأكثر شهرة وأهمية "الفتوحات المكية"، وفيها التقى بـ"نظام" ابنة "متين الدين الأصفهاني"، وعزّفنا إليها كعالمّة متفوهة شديدة الحُسن، أحبّها إلى درجة العشق، وبإدلائه الحبّ، وحالت بين ارتباطها بحبكة "الأوتاد" في الرواية، فكتب عنها ولها، ديوانه المعروف "ترجمان الأشواق" الذي أثير حوله لغطّ شديد، واتهم بالتشبيب بـ"نظام"، ومن ثمّ أهداها هذا الكتاب.

2. مفهوم محيي الحلم (Dream Narrative):

محيي الحلم هو سرد الحلم داخل النص الروائي، أي الحلم كما يُروى من قبل الشخصية الصوفية، أو كما يُصاغ في السياق الأدبي والروحي، يكتسب هذا المحكي طابعًا خاصًا في الأدب الصوفي كونه لا يُنظر إليه باعتباره خيالاً أو تهبؤًا، وإنما باعتباره وسيلة للوصول إلى المعرفة الباطنية والإشارات الإلهية. فهو مصطلح أدبي ونفسي يُقصد به عملية سرد الحلم أو تحويله إلى قصة، وهو الانتقال من حالة "الرؤية اللاشعورية" أثناء النوم إلى "بنية لغوية" مفهومة عند اليقظة، فيُدرس هذا المصطلح من زاويتين أساسيتين: أولاً: من زاوية النقد الأدبي حيث يُوظف كتنقيد سردي؛ وذلك من خلال تفعيل الروائي للأحلام في نصه السردي، من أجل ترميز أفكار ورؤى.

ثانياً: من ناحية علم النفس، يُمنح الحلم وظيفة علاجية وتأويلية بالغة الأهمية، إذ ارتبط في الدراسات النفسية الحديثة بالكشف عن البنية اللاشعورية للإنسان، وفهم أزماته النفسية والروحية، وهو ما نجده متجسداً بصورة واضحة في رواية موت صغير. وقد أسهمت نظريات التحليل النفسي، خاصة عند سيغموند فرويد (Freud Sigmund) وكارل غوستاف يونغ (Carl Gustav Jung) وجاك لاكان (Jacques Lacan)، في إعادة النظر إلى الحلم باعتباره خطاباً رمزياً يكشف عن أعماق الذات الإنسانية، وليس مجرد ظاهرة بيولوجية أو حالة ذهنية عابرة.

فقد نظر فرويد إلى الحلم بوصفه أداة أساسية لتفكيك الحالة اللاشعورية التي يعيشها الإنسان، حيث رأى أن الأحلام تعبّر عن الرغبات المكبوتة والصراعات النفسية التي يعجز الوعي عن الإفصاح عنها بصورة مباشرة. وفي كتابه

البهذيان والأحلام في الفن، توقف عند قصة "غراديفا" لفيلهلم ينسن (Wilhelm Jensen)، محاولاً الكشف عن المرجعيات النفسية للحلم ومصادره داخل العمل الأدبي، ليخلص إلى أن الأحلام تتشكل من "بقايا نهائية" (سيغموند فرويد، 1978، ص 105) وأفكار يتركها النشاط النفسي في حالة اليقظة دون حل أو انتباه. ومن خلال هذا التصور، يمكن قراءة الأحلام في رواية موت صغير بوصفها انعكاساً للصراع الداخلي الذي يعيشه محيي الدين بن عربي، حيث تتحول الرؤى الحلمية إلى وسيلة للكشف عن التوتر القائم بين العالم الحسي والعالم الروحي، وبين الرغبة الإنسانية في الاستقرار والعشق الصوفي الساعي إلى الفناء في المطلق. فالحلم عند علوان لا يكشف فقط عن اضطرابات الذات، بل يعبر عن قلق وجودي عميق يرافق رحلة البطل نحو المعرفة والكشف.

أما يونغ، فقد تجاوز التفسير الفرويدي القائم على الرغبة المكبوتة، ونظر إلى الحلم باعتباره "صورة واضحة عن الحالة النفسية والشخصية" (سلدن، رامن، ترجمة: جابر عصفور، 1998، ص 132)، حيث يعمل الحلم -وفق تصوره- بوصفه مرشداً داخلياً يساعد الإنسان على معرفة ذاته وتحقيق توازنه النفسي والروحي. ويتجلى هذا البعد بوضوح في الرواية، لأن الأحلام التي يعيشها ابن عربي لا تؤدي وظيفة نفسية فحسب، بل تمثل مراحل من تطوره الروحي والعرفاني. فالحلم هنا يصبح أداة للكشف الذاتي، ووسيلة لفهم التحولات الداخلية التي تعيشها الشخصية في رحلتها الصوفية. كما أن الرموز الحلمية التي تتكرر في الرواية -مثل النور والسفر والعشق والرؤيا- تتقاطع مع مفهوم يونغ عن "اللاوعي الجمعي"، أي ذلك المخزون الرمزي المشترك الذي يحمل دلالات إنسانية وروحية كونية.

وفي السياق ذاته، يربط لآكان الحلم بالبنية النصية والرمزية، إذ يرى أن اللاشعور يتشكل مثل اللغة، وأن الحلم يخفي معناه في صور ورموز تحتاج إلى التأويل وفك الشفرة (سلدن، رامن، ترجمة: جابر عصفور، 1998، ص 132) ومن هذا المنظور، يغدو الحلم في موت صغير خطاباً رمزياً مفتوحاً على التأويل، حيث لا تُقدّم الرؤى الحلمية بصورة مباشرة أو تفسيرية، وإنما تأتي عبر إشارات واستعارات وصور مكثفة تجعل القارئ شريكاً في إنتاج المعنى. فالحلم عند علوان لا يفصل بين الواقع والخيال، بل يجعل منهما عالمين متداخلين، فيتحوّل الحلم إلى جسر يربط التجربة الواقعية بالتجربة الروحية، والوعي باللاوعي، والمرئي بالباطني.

وانطلاقاً من هذه المرجعيات النفسية، يمكن القول إن الحلم في رواية موت صغير يمثل عنصراً محورياً ومفتاحياً لفهم سيرة محيي الدين بن عربي، التي تشكل المركز الدلالي للرواية. فقد فُعل محمد حسن علوان الحلم بوصفه أداة فنية وروحية في آن واحد، تسهم في تجسيد التجربة الصوفية العميقة للشخصية، والكشف عن تطورها النفسي والفكري والعرفاني. فالأحلام في الرواية لا تُستخدم للزخرفة السردية أو الاستشراق الحكائي فقط، وإنما تؤدي دوراً معرفياً وجالياً يتمثل في تعميق البعد الصوفي للنص، وإبراز التحولات الوجدانية التي يعيشها البطل في رحلته نحو الحقيقة الإلهية. وعليه، فإن علوان استطاع أن يوظف الحلم بطريقة تتقاطع فيها الرؤية النفسية مع الرؤية الصوفية، فأصبح الحلم فضاءً للكشف عن أعماق الذات، وأداة لفهم العالم والوجود، وجسراً يربط الإنسان بالمطلق. وهذا ما منح الرواية كثافة رمزية وفكرية، وجعل من محكي الحلم محوراً أساسياً في تشكيل بنيتها السردية والدلالية.

3- أشكال الحلم داخل الرواية:

1.3. الحلم وسيلة للمعرفة الصوفية:

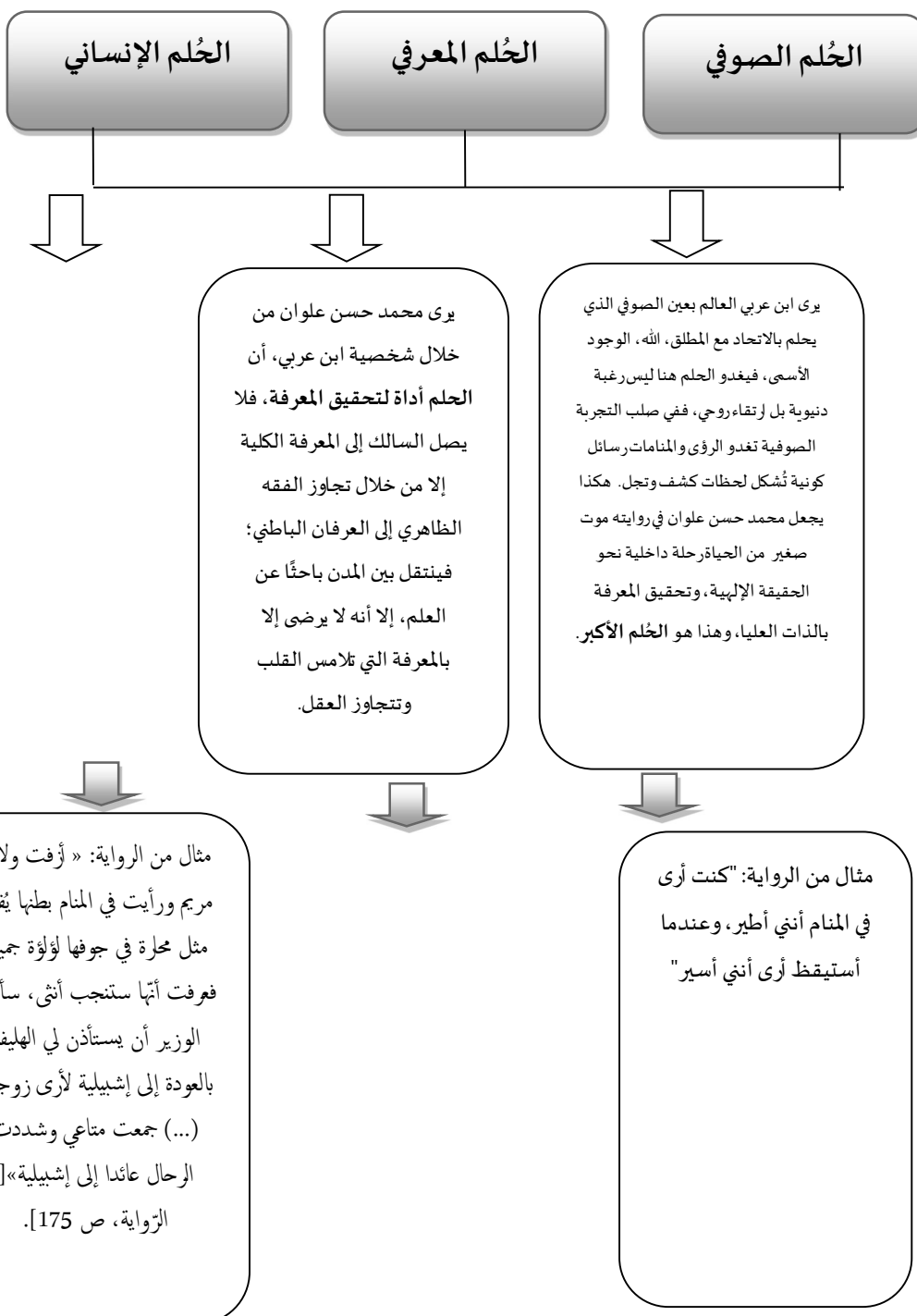
تتجلى في الرواية رؤى وأحلام متكررة يعيشها الراي (ابن عربي)، ثلهمه وتوجهه في مسيرته الروحية، فينظر إلى الحلم في التصوف على أنه نافذة تطل على العالم الغيبي، ومحطة يلتقي فيها العارف بإشارات من الله، وهو ما يظهر في قول السارد: "كنت نائمًا بايعتني القوى العلوية في الليلة التي سبقت خروجي من ملطية، جذبتني فارتفعت عن فراشي معلقًا في الهواء قيد شبر محمولًا بإرادة العزيز الجبار، لم تكن جذبة مفاجئة بل انتظرت حدوثها في أي لحظة منذ أن اكملت طوافي على أوتاد الأرض طوافًا كُتب علي قبل ولادتي، ولكن كل جذبة تصعقتني حتى يصير قلبي حامية في الملكوت، وكلامي فهو ناي لا تدركه الأسماك، وينخطف البصر بنور الله ولكن تسطع به البصيرة، ثم يكشف الله لي ما يأمر به عبده الفقير إليه المنقطع إلا منه (محمد حسن علوان، 2016، ص 09) ويضيف السارد وهو يصف كيف أن الحلم وسيلة لتحقيق المعرفة، والوصول إلى الكشف قائلا: "يأمرني أن أكتب كتابًا وأكشف علمًا وأصحب شيخًا وأحمل مريدًا وأخلو عندما أحتاج إلى الخلوة وأجلو عندما تحل الجلوة، كل ما أفعله في طريقي إلى الله هو أمره وتديره: السهل والشاق، الفرح والحزن، الحل والترحال، العلم والشطح، الحرف والرقم، الكلام والسكوت، وأصبحت قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني، مرآة الحق، في يدي طلسم الله الأعظم، وقسطاس الأعم، و...." (محمد حسن علوان، 2016، ص 09)، هكذا فتح الحلم للسارد آفاقًا للمعرفة، من خلال الرسائل الإلهية والتنبؤات العرفانية.

2.3. الحلم برزخ بين الموت والحياة:

يقودنا عنوان الرواية "موت صغير" إلى استحضار فكرة وجود موت أكبر وهو مفارقة الحياة، أما الموت الصغير فهو يُشير إلى النوم أو الغياب المؤقت عن العالم المادي، والذي يُشبه حالة السكر التي يعيشها الصوفي وهي نوع من طقوس الصوفية وتحقيق للفناء الصوفي. يقول ابن عربي في محكيه الحلمي: "أعطاني الله برزخين: برزخ قبل ولادتي وآخر بعد مماتي، في الأول رأيت أمي وهي تلدني، وفي الثاني رأيت ابني وهو يدفني، رأيت أبي يضحك مُستبشرًا ببعثي الذكر، ورأيت زوجتي تبكي مفجوعة في زوجهما المسن (...) رأيت كل هذا بكشف الله الأعم، ونوره الأسنى في سنوات قليلة من برزخين" (محمد حسن علوان، 2016، ص 13)، لذا يُمكن اعتبار النوم تجربة قريبة من الموت، وفي الوقت نفسه قريبة من الكشف والإلهام، وفيها تتجلى الرؤيا والمشاهدة والكشف، فتُساعد هذه المُكاشفات الراي على فهم ذاته والارتقاء إلى ربه وفهم الوجود.

3.3. الحلم أداة للسرد والتوجيه:

إن المتتبع لقرارات السالك ابن عربي الكبرى، يلاحظ أن رحيله من الأندلس، واختياراته في مسيرته العرفانية الروحية، كانت نتيجة الأحلام التي تتكرر عنده، وهنا يغدو الحلم ليس فقط وسيلة شخصية للتوجيه، بل أداة سردية يستخدمها محمد علوان لإضفاء الطابع الحركي للسالك الصوفي. ويمكننا تقسيم الحلم في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان إلى ثلاثة أقسام:



ونستخلص من هذا المخطط، أن الحلم في رواية "موت صغير"، ينقسم إلى عدة أنواع، نختصرها على النحو الآتي:

- 1- الحلم = رحلة نحو الله (الحلم الصوفي)
- 2- الحلم = رغبة في المعرفة (الحلم الفلسفي)
- 3- الحلم = حنين إنساني للحب والالتقاء (الحلم العاطفي)
- 4- الحلم = وسيلة للتحرر من الواقع، فهو أداة نجاة (الحلم النفسي).

فرواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان، مشحونة بطاقة الحلم، حيث تبرز فيها طاقة الواقع بطاقة الحلم، لتجلى لنا صورة الواقع الحقيقي بعين ابن عربي، في تجاوز الواقع المادي الصلب، إلى الحلم المتجاوز. ويمكن مقارنة هذه المحاور الأربعة بوصفها مستويات دلالية متداخلة يتشكل من خلالها محكي الحلم في رواية موت صغير، إذ لا يظهر الحلم داخل النص باعتباره رؤية معزولة، بل باعتباره بنية رمزية تعبّر عن أزمة الإنسان في بحثه عن المطلق والمعرفة والحب والخلاص. ومن هنا يمكن تشكيل هذه الأبعاد وفق قراءة نقدية على النحو الآتي:

أولاً: الحلم بوصفه رحلة نحو الله (الحلم الصوفي)

يتخذ الحلم في الرواية بعداً صوفياً واضحاً، إذ يتحول إلى وسيلة للعبور من العالم الحسي إلى العالم الروحي، ومن الإدراك الظاهري إلى الكشف الباطني. فالشخصية الصوفية لا تتعامل مع الحلم باعتباره مجرد صورة ذهنية عابرة، وإنما بوصفه تجربة كشفية تمنحها إمكانية الاقتراب من الحقيقة الإلهية. ولذلك يصبح الحلم امتداداً لمسار "السلوك الصوفي" الذي يقوم على المجاهدة والتطهير والبحث عن الفناء في المحبوب الإلهي.

ومن منظور نقدي، يمكن القول إن الكاتب يوظف الحلم لإعادة إنتاج الخطاب الصوفي داخل الرواية الحديثة، حيث تتداخل الرؤيا بالعشق الإلهي، فيغدو الحلم فضاءً تتحقق فيه لحظة الصفاء الروحي والتجلي. فالأحلام هنا لا تنقل معرفة عقلية مباشرة، بل تفتح أفقاً عرفانياً يجعل الشخصية أكثر وعياً بحقيقتها الوجودية. ومن ثم، فإن الحلم يؤدي وظيفة "الوسيط الروحي" الذي يربط الإنسان بالمطلق.

ثانياً: الحلم بوصفه رغبة في المعرفة (الحلم الفلسفي)

لا ينفصل الحلم في الرواية عن البعد المعرفي والفلسفي، إذ يمثل أداة للتساؤل والتأمل في قضايا الوجود والإنسان والزمن والحقيقة. فالشخصية الحلمية ليست مجرد ذات منفعة بالأحداث، بل ذات قلقة تسعى إلى إدراك المعنى الكامن خلف العالم الظاهر. لذلك يتحول الحلم إلى فضاء فلسفي تطرح داخله الأسئلة الكبرى التي يعجز الواقع المباشر عن الإجابة عنها.

ويكشف هذا البعد عن حضور "القلق المعرفي" في الرواية، حيث يصبح الحلم شكلاً من أشكال التفكير العميق في المصير الإنساني. كما أن الحلم الفلسفي يعبر عن رغبة الشخصية في تجاوز المعرفة الحسية المحدودة نحو معرفة تأملية تتجاوز حدود العقل التقليدي. ومن هنا فإن الحلم لا يقدم أجوبة نهائية، بل يفتح النص على احتمالات تأويلية متعددة.

ثالثًا: الحلم بوصفه حينًا إنسانيًا للحب والالتواء (الحلم العاطفي)

يتجلى الحلم كذلك بوصفه تعبيرًا عن الحاجة الإنسانية العميقة إلى الحب والطمأنينة والالتواء. فالشخصية داخل الرواية تعيش اغترابًا وجوديًا وروحياً يجعلها تبحث باستمرار عن مأوى عاطفي يخفف قسوة العالم ووحشة الرحلة الصوفية. ولذلك تأتي الأحلام محملة بصور الحنين واللقاء والرغبة في الاتصال بالآخر.

ومن الناحية النقدية، يكشف هذا البعد عن الجانب الإنساني في التجربة الصوفية، لأن التصوف لا يقوم فقط على العزلة الروحية، بل أيضًا على الحب باعتباره جوهر الوجود. فالحلم العاطفي يعبر عن رغبة الذات في تحقيق نوع من الانسجام الداخلي، سواء عبر الحب الإنساني أو الحب الإلهي، فيتداخل العشق الروحي بالعشق الإنساني داخل بنية رمزية واحدة.

كما أن هذا الحنين يكشف عن هشاشة الإنسان أمام فقدان الألفة، لذلك يصبح الحلم مساحة تعويضية تستعيد فيها الذات ما افتقدته في الواقع، سواء كان ذلك أمناً نفسيًا أو قرباً عاطفياً أو شعوراً بالانتماء.

رابعًا: الحلم بوصفه وسيلة للتحرر من الواقع (الحلم النفسي)

يمثل الحلم في الرواية أداة للتحرر من ضغط الواقع التاريخي والنفسي، إذ تلجأ الشخصية إلى العالم الحلم بوصفه ملاذًا داخليًا يخفف من وطأة الألم والقلق والاغتراب. ومن هنا يكتسب الحلم وظيفة نفسية علاجية، لأنه يسمح للشخصية بإعادة ترتيب مخاوفها وصراعاتها الداخلية في فضاء رمزي أقل قسوة من الواقع.

وفي هذا السياق، يمكن النظر إلى الحلم باعتباره "آلية دفاع نفسي"، حيث يتيح للذات إمكانية الهروب المؤقت من أزمت العالم الخارجي نحو عالم أكثر حرية واتساعًا. كما يسهم في التعبير عن الرغبات المكبوتة والهواجس الوجودية التي لا تستطيع الشخصية الإفصاح عنها بصورة مباشرة. ومن منظور سردي، يؤدي هذا الحلم النفسي دورًا مهمًا في تعميق البعد السيكولوجي للشخصيات، لأنه يكشف عن هشاشتها الداخلية وصراعاتها المستمرة بين الرغبة في النجاة والخوف من الضياع. لذلك يصبح الحلم في كثير من الأحيان أداة للبقاء الروحي والنفسي، وليس مجرد عنصر جمالي داخل النص.

وعليه، فإن هذه الأبعاد الأربعة لا تظهر منفصلة داخل الرواية، بل تتداخل لتشكّل رؤية شاملة للحلم بوصفه تجربة وجودية وروحية وعاطفية ونفسية في آن واحد. فالحلم في رواية "موت صغير" ليس مجرد تقنية سردية، وإنما خطاب رمزي يعكس رحلة الإنسان نحو الله والمعرفة والحب والخلاص. ولقد استثمرنا هذا المصطلح وفَعَلْنَاهُ في بحثنا لمتابعة تاريخية "العشق الإلهي"، بدءًا من تتبع حياة محي الدين بن عربي، ورصد تحولاته الحياتية باعتباره قُطْبُ الشَّانِ الإلهي. وكيف يغدو العشق في العالم الصوفي حلمًا كبيرًا وموتًا صغيرًا.

فنكون في رواية "موت صغير" بصدد تشكيل حكيّ خلّمي، يتفاعل فيه الواقعي بالخيالي (الحلم)، والتاريخي بالأسطوري، أي أنّه حكيّ بالتأرجح العليّا كما يسمّيه محمد بوعزة (محمد، بوعزة، 2014، ص 180) ولهذا تفاعلت التصوُّص الأدبية وغير الأدبية في كيمياء المنجز السرديّ العلواني، وتضافر الأسطوريّ بالتاريخي، وتعلق الواقعيّ بالخياليّ (الحلم)، فصنّفناها ضمن روايات ما بعد الحداثة، التي أعلنت موت السرديات الكبرى ونادت بالسرديات البديلة، وقدّمت لنا حكيًا بالتأرجح الغلبا تقول هُجْنَةُ الهُؤَيَاتِ بين خصوصيّة الثقافيّ وفاعليّة الكونيّ. ولا بأس أن نُورد بعض الجُمْل الصوفيّة

المركزية، التي تُفعل تيمة "الحلم" كحقيقة وجودية، حيث حرص السارد على تمطيطها داخل المحكي السردية العلوانية، ليجعل من "محكي الحلم" ميثاقاً في محكيه السردية، ويمكن أن نستجلي بعض الجمل التي تُعبر عن هذا الحلم كما في الجدول الآتي:

الزوايا	الجمل الصوفية التي تقول "الرؤيا والحلم" في المحكي السردية العلوانية	الصفحة
رواية "موت صغير"	- "كنت أرى في المنام أنني أطيّر"	315
	- "... حُباً يصحبني أينما سرت، ويوقظني كلما نمت، هو ظلي في النهار وفراشي في الليل"	320
	- "أزفت ولادة مريم ورأيت في المنام بطنها يُفتح مثل محارة في جوفها لؤلؤة جميلة فعرفت أنها ستنجب أنثى"	175

يُعتبر "الحلم" داخل المحكي السردية العلوانية ميثاقاً وسراً إلهياً. حيث لن يرتقي العاشق إلى مراتب العشق، ولن يتحقق الكشف، إلا برسائل الله التي تأتيه في الحلم عبر ما يُسمى بالمشاهد القدسية، وهو ما لحّظه "ابن عربي" في كتابه "المشاهد القدسية" (Ibn 'Arabi, Stéphane Ruspoli, (le livre des contemplations divins)

(1999, p177)، حيث قسمها إلى أربعة عشر مشهداً قدسياً، نُحَصِّها على النحو الآتي:

- محكي الحلم في سيرة ابن عربي (المشاهد القدسية والمكاشفات الروحانية):

- المشهد الأول: نور الوجود بطلوع نجم العان
- المشهد الثاني: نور الأخذ بطلوع نجم الإقرار
- المشهد الثالث: نور الستور بطلوع نجم التأييد
- المشهد الرابع: نور الشعور بطلوع نجم التنزيه
- المشهد الخامس: نور الصمت بطلوع نجم السلب
- المشهد السادس: نور المطالع بطلوع نجم الكشف
- المشهد السابع: نور الساق بطلوع نجم الدعاء
- المشهد الثامن: نور الصخرة بطلوع نجم البحر
- المشهد التاسع: نور الأنهار بطلوع نجم الرتب
- المشهد العاشر: نور الحيرة بطلوع نجم الرتب
- المشهد الحادي عشر: نور الألوهية بطلوع نجم "لا"
- المشهد الثاني عشر: نجم الأحذية بطلوع نجم العبودية
- المشهد الثالث عشر: نور العمدة بطلوع نجم الفردانية
- المشهد الرابع عشر: نور الحجج بطلوع نجم العدل

يلاحظ المنتبج لهذه المشاهد القدسية والمكاشفات الروحانية، ارتقاء الذات العاشقة (الذات الصوفية) إلى التواصل والاتصال مع الذات الإلهية، وخلق "حوارٍ قُدسيّ" مُتجذّر في عقيدة كلّ صوفيّ، والذي حدّدته التركيبة الآتية: (Dieu / me dit / قال لي الله)، فتمخّضت عن هذه الجمل القولية، أسرار إلهية ومكاشفات روحانية.

3- الحلم والتاريخ:

تنقل رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان تداخلاً دقيقاً بين الحلم والتاريخ، حيث يجعل السارد من حياة الصوفي محي الدين بن عربي مسرحاً لاستكشاف الصراعات الروحية، والتحوّلات السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى.

ولابد أن نُشير إلى أن رواية "موت صغير" في صلة وطيدة مع المرجع؛ لأنّ المُختلّل السردّي عند محمد حسن علوان كان وثيق الاتصال بالماضي التاريخي، بدءاً من عتبة العنوان "موت صغير" التي تحيلنا على العشق الإلهي والعرفان الصوفي، لذا يمكننا أن نقول بفتح روايته على التاريخ، ما جعل منها رواية تاريخية بامتياز، كونها « عملاً سردياً يرمي إلى بناء حقبة من الماضي بطريقة تخيلية حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة، إنّما في الزاوية التاريخية نجد حضوراً للمادة التاريخية لكنها مقدّمة بطريقة إبداعية وتخييلية » (سعيد، يقطين، 2010) فيغدو النصّ السردّي عند محمد حسن علوان « لعبة للكتابة يشغل كترحيل للعلامات من الواقعيّ إلى الرؤيويّ، ومن المرجعيّ إلى الرّمزيّ » (محمد، بوعزة، 2014، ص 171) باستخدام تقنية الحلم التي تتكرر كثيراً داخل النص السردّي العلواني، ونؤكد هنا أنّ محمد حسن علوان في روايته "موت صغير" عَمِلَ على انصهار الحدود بين الزاوية والتاريخ، وذلك من خلال إدماج وتماهي الذات الصوفية مع السردّيات الكبرى، أي سردّيات البدايات التأسيسية وخلق سردّيات بديلة، تنطلق من الماضي ولا تتوقّف عنده.

وتتجلّى مركبة التاريخ في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان من خلال اشتغال السارد على تقنية التوثيق التاريخي، كأنّ يستهل فصول روايته بمداخل تاريخية، فيقول: « أذربيجان ٦١٠هـ / ١٢١٢ م (محمد حسن علوان، 2016، ص 07) ويضيف: « المخطوط في حلب ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م (محمد حسن علوان، 2016، ص 50)، ويواصل السارد وهو يوثّق تاريخاً مساره الحياتي ومسلكه العرفانيّ الصوفي، قائلاً: « المخطوط في دمشق ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م (محمد حسن علوان، 2016، ص 181) « المخطوط في الكرك ٧٠٨هـ / ١٣٠٩ م (محمد حسن علوان، 2016، ص 240) لقد كان السارد شديد الحرص على توثيق الأحداث، فُعَيْنَة هذه الظاهرة في رواية "موت صغير" تحدّد مركبة التاريخ، والتي تتشكّل - أي مركبة التاريخ - من خلال مجموعة من القرائن والإحالات النصّية، كالإلحاح على التوثيق التاريخي بمداخل نصّية يستهل بها كلّ فصل من الرواية، ولهذا تمّ تفعيل عنصر التاريخ « كعلم مقبول / كوثق » (روجيه شارتيه، ترجمة: طواهري ميلود، 2017، ص 278) فعندما يعود محمد حسن علوان إلى تاريخ محي الدين بن عربي الملقّب بالشيخ الأكبر، كانت رغبة منه في ترميز روايته السردية للأحداث التاريخية، وتفعيل رؤية الذات الساردة واشتغالها في الذاكرة الفردية داخل النموذج المثاليّ اليقينيّ / الذاكرة المضادة.

وننوّه -هنا- إلى أنّ الكاتب محمد حسن علوان عاد إلى التاريخ ليمتلكه، فيجعلنا ننظر إليه من خلال ذاكرة السارد الفردية دون إلغاء للذاكرة التاريخية المضادة، كما نشهد تداخلا بين الحلم والتاريخ، بل وتتأسس الرواية على هذا التداخل الحيوي، ويمكن فرز هذا التداخل بينهما من خلال هذا الجدول:

الحلم	التاريخ
- يمثل البعد الباطني (الصوفي)	- يُمثل البعد الظاهري (الواقعي)
- يفتح آفاق الحقيقة الروحية	- يقيده بحدود العالم الخارجي
- ينبع من داخل النفس	- يقرض نفسه من الخارج
- يُستخدم كقوة دافعة نحو التغيير	- يُستخدم كقوة ثابتة مقدسة

نستنتج من خلال الجدول الآتي أن الحلم في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان، لا يُقدم كحالة هروب، ولا التاريخ كوثيقة جامدة، وإنما يتم تفعيل عنصري الحلم والتاريخ بشكل عضوي ليروي سيرة رجل سالك تتقاطع في رحلته الحياتية مجموعة من الشنائت: يتقاطع الحلم بالواقع والقدر بالاختيار والظاهر بالباطن والحب بالموت؛ وبهذا فالرواية التي نحن بصدد الاشتغال عليها، تؤكد أن الرحلة الصوفية لا تنفصل عن المسار التاريخي، وأن التحولات الكبرى تبدأ من الداخل من (حلم صغير)، يُفضي إلى (موت صغير)، فبعث جديد.

ولهذا نحاول قراءة التاريخ عامة، والتاريخ الصوفي (العشق الإلهي) خاصة، من خلال عيون الآخر/ الذات الساردة، وتتبعه حياة وسيرة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وكيف جعل من « الغياب حضوراً، والتأسيس لمن ينظر إليها كذات ناظرة » (روحيه، شارتييه، 2017، ص165) ولهذا نحاول أن نعين العالم الصوفي وعلامات العشق الإلهي ومحكي الحلم من خلال عُيُون الذات الساردة السالكة، فيسعى علوان في روايته "موت صغير" إلى أن يُصوّر لنا الذات الصوفية العارفة كذات « هاربة من الفعل ولا تهمّ بالفعل، ذات "مخطوفة" تسكنها "شطحات الحال" تحاول بكلّ قواها الوجدانية المستمدة من روح العرفان زحزحة ما تعارف عليه الناس » (سعيد، بنكراد، 2008، ص184) ويضيف قائلاً: « إنها الرؤى ذاتها والأحلام التي ستفقد السارد لاحقاً إلى تسريب "الحلم" و"العجيب" و"المدّهب" و"الغريب" إلى عوالم الواقعي، من خلال خلق ترابط بين ملكوت التوحيد والانعزال الصوفي في أعالي الجبل، وبين بدهة العلاقات الإنسانية كما تتحقق في الوظائف الاجتماعية » (سعيد، بنكراد، 2008، ص184) ولهذا ينطلق السارد في تأثيث عالمه السردية، من مقامات الصوفي، وطقوس السالك الروحاني، التي لا بدّ من إدراكها، إذ يُحاول أن يُقدّم لنا مشاهد سردية عن الخلق الأوّل، حيث « روح الله وحدها مبدأ لتنظيم الكون » (سعيد، بنكراد، 2008، ص184) فيذكر السارد انعزاله عن العالم ولجؤه إلى الغابة، حيث السكون والتدبّر وروح الله، فيقول: « ما أكثر هذا المتاع على طالب الخلوة وما أمضاها في إفسادي، إذا سهرت لأشهد مطالع الأنوار الإلهية صيّعت عليّ ذلك حشيتة الصوف بالنوم، وإذا لزمتم الصمت لأسمع حفيف الأسرار القدسية قرقرت بطني فجئت وانشغلت، وإذا أشعلت مصباحي وأخرجت أوراقي وغمست دواقي في قنينة الخبر (...) انشقت من حيث تتماس الدّواة والورق شبّاك تطلّ منه أرباض الأندلس وأزقة فاس وزوايا تونس وخوانق القاهرة وشعاب مكّة وحوانيت بغداد وغوطة دمشق وبحيرات قونية...أيّ عزلة هذه ! » (محمد

حسن علوان، 2016، ص 08) ويضيف السالك وهو يروي لنا ما يكابده من مُعاناة في رحلته المعرفية والمعراج الزوحياتي، قائلاً: « لا أعلم مكاني (...) كل ما أذكره أنني تركت "ملطية" واتجهت شرقاً وعلى ظهري بساط من وبر حملت فيه كل متاعي، أمشي حتى أتعب، وأكل بما ألقى، وأنا م حيث يطبق الليل، تيبس باطننا قديم منذ اليوم الثالث من المشي وصار لونهما غريباً كأنهما ليسا من جسدي، وزادت لحيتي شعثاً وتشققت شفتاي حتى لا أفتحهما لأقضم لقمة إلا سال منها خيط دم يسير » (محمد حسن علوان، 2016، ص 08) فالملكابدة والمجاهدة هي كل ما تتعرض له الذات الصوفية السالكة في رحلتها الطويلة وسفرها من أجل الكشف / إدراك ومعرفة الذات الإلهية، لهذا نؤكد أنه « لا طريق للسالك إلى الله إلا بالمجاهدات والمقامات... » (محمد علي ديري، هيفرو، 2009، ص 230).

فقصة العشق بين السالك والمعرفة هي مفتاح الولوج إلى عالم التصوف وأسراره الزوحياتية وعوالمه التوراتية، و« ضريبة العاشق لكي يصل إلى معشوقه هي الدمع والدم والألم » (جماعة من المؤلفين، 2016، ص 10) وبهذه المكابدة ترتقي الذات السالكة الصوفية إلى الاتصال بالذات الإلهية، فيغدو الحب والحلم موت صغير.

ويواصل في عرض ووصف ما كابده نفسه، وما تُعانيه الذات الصوفية، فيقول: « لم يبق في جسدي عضو إلا أن واشتكي وأنا على سبيري لا أتوقف، تتلفني الطريق بعد الطريق، يصعد بي التل ويهبط بي الوادي، وأمر بالتاس في القرى والحوضر، وبالوحش في الفقر والخلوات، رافقي الهلال والمحاق والبدر قبل أن تقطع الجبال طريقي » (جماعة من المؤلفين، 2016، ص 10)

فلاحظ كيف تناسلت العلامات الصوفية، وذلك بغية إنتاج ما يسميه "رولان بارث" (Roland Barthes) بامبراطورية العلامات، وعملاً -أيضاً- بنمط الكتابة عند ابن عربي الذي « يختزل هذه الطاقة في مطاردة المعنى بتشتيته وإرجائه لتصبح الحقيقة هي جسد الحرف » (محمد شوقي الزين، 2008، ص 218) أو جسد العلامات المتوالية بتعبير محمد شوقي الزين، فحاول محمد حسن علوان أن يخلق لنا نسقاً إمبراطورياً، يختزل العالم الصوفي في أعلامه، ورموزه، وتجاربه، وعلاماته، ويُعقل طاقة "كوجيطو الحلم"، أنا أحلم إذن أنا موجود، الذي يوحى إلى الرغبة المستمرة في الامتلاء والارتواء المعرفي، أي التعطش إلى القبض على المعنى (الحقيقة) في افلاته الدائم.

3- الهوية الكونية بين الحلم والذاكرة الصوفية:

يجمع هذا العنوان بين عناصر متعددة: الصوفية، الهوية، الحلم، والبعد الكوني، في إطار سردي يستعيد سيرة محي الدين بن عربي في قالب روائي تخيلي، يُعيد بناء سيرة الشيخ الصوفي بن عربي منذ ولادته في الأندلس حتى وفاته في دمشق، فهي رحلة كونية، تاريخية، روحية وجغرافية، تنابع من خلالها تحولات الهوية عبر الأزمنة والأمكنة. كما يتجلى البعد الكوني عبر تقنية الحلم، فتتسع دائرة التجربة الصوفية لتتجاوز حدود الزمان والمكان معاً، فتتحول الذات الصوفية من شخص يعيش تجربة محلية (الأندلس) إلى ذات كونية تستبطن الإنسانية ككل.

يُحاول محمد حسن علوان من خلال محكيته السردية الحفر في الهوية الأندلسية، وقراءة أبعادها الكونية، إذ تعمل الذات العارفة على الالتحام بموضوع المعرفة، والقبض على الحقيقة، ولهذا علينا أن نقرأ التاريخ في رواية "موت صغير" لا كسردية كبرى وإنما كأسطورة « لا تحيي الماضي سوى لتعيد حبه أو دفنه في النص، (...) فتستحضره في شكل تمثّل أو مثول يتكرر، هو مجرد حضور وهمي ينظم بشكل مدهش ومربك مساحة الواقع الفعلي » (محمد شوقي الزين،

2008، ص 256، 257) لهذا عَمِلَ السارد على تتبع حركة الذات الصوفية العارفة، داخل الذاكرة التاريخية، مع هدم للسرديات الكبرى (المركزية) والتأسيس لسرديات بديلة.

لهذا يتم عرض الأندلس في الرواية كرمز حضاري تعددي، تتلاقح فيه جميع الأديان، اللغات، والفلسفات، وبين عربي ابن هذا المناخ مما ساعده في تشكيل هويته، إلا أن الهوية الصوفية الأندلسية عنده تجاوزت الانتماءات الضيقة، ذلك كونها لا تُقدم بوصفها هوية ذاتية مغلقة، وإنما باعتبارها نموذج للهوية الكونية المفتوحة.

فلا تُقدم لنا رواية موت صغير سيرة شخصية فقط، وإنما تنقل لنا تصوّرًا فلسفيًا عن الإنسان، والهوية، والوجود، فمن خلال محكي الحلم، يُفتح بابٌ للتأويل، ومن خلال الصوفية يُعاد تشكيل الذات، ومن خلال الهوية الأندلسية يُستعاد نموذج إنساني منفتح وعميق.

فيلاحظ المنتبِع للتطور الزمني حياة محي الدين بن عربي في المحكي التاريخي العلواني، وما ورد في محكي الحلم، تشابهًا كبيرًا في الأحداث الكبرى، حيث تعمّد محمد حسن علوان الإبقاء على بعض التفاصيل كالأمكنة وأسماء الشخصيات الخ... ولم يفعل ذلك رغبة منه في تبجيل الأحداث التاريخية، وإنما عمل في أحايين كثيرة على تقويض التاريخ كحقيقة مُطلقة، لأنها – أي الحقيقة من وجهة نظر بن عربي – تأبى الحصر.

ونظرًا لأهمية الوعي الديني كحقيقة تستكين إليها الذات الصوفية العارفة، وبعد رحلة الكشف عند بن عربي، تبين أنه لابد من هدم اليقين وتقويض التاريخ كحقيقة، فكان في رحلته الكشفية الحلمية يُحاول -في كلّ مرّة- أن يعود فيها إلى مكة، لأنها تمثل -مكة- الرمز الديني الذي يضيء على الشيخ الأكبر حياة أخرى خارج اليقين التهاوي، فهي تمثل الحياة الثانية لمحي الدين بن عربي، ودعوة منه إلى قراءته في ظلّ هذا التجديد والإحياء الروحاني، كأن منطقة يُكرس الكوجيتو العشقي الصوفي القائل: "أنا عاشق، إذن أنا موجود".

4. خاتمة:

تكشف هذه الدراسة، من خلال مقارنة محكي الحلم في رواية موت صغير للروائي محمد حسن علوان، أن الحلم لم يكن عنصرًا سرديًا هامشيًا أو مجرد تقنية جمالية تكميلية، بل شكل بنية مركزية في تشكيل الخطاب الروائي والصوفي. فلقد استطاع الروائي أن يفعل محكي الحلم بوصفه فضاءً رمزيًا تتقاطع فيه التجربة الروحية بالتجربة الإنسانية، ويتداخل فيه الواقعي بالمتخيل، والمعرفي بالوجداني، ما أتاح للنص أفقًا دلاليًا واسعًا قائمًا على التأويل والانفتاح الرمزي.

وقد بينت الدراسة أن الحلم في الرواية اضطلع بوظائف متعددة، تجاوزت حدود الاستشراق الحكائي إلى بناء التجربة العرفانية للشخصية الصوفية، حيث تحوّل إلى وسيلة للكشف الروحي وبلوغ المقام العرفاني. فالرؤى الحلمية التي تتخلل الرواية لم تكن انعكاسًا نفسيًا مجردًا، وإنما جاءت بوصفها لحظات إشراق وكشف تسهم في انتقال الشخصية من المعرفة الحسية إلى المعرفة الباطنية، ومن الإدراك العقلي المحدود إلى أفق العشق الإلهي والمعرفة الصوفية. وبهذا المعنى، أصبح الحلم جزءًا من "البرنامج السردى الصوفي" الذي يقوم على الرحلة الروحية والسلوك نحو الحقيقة المطلقة.

كما أثبتت الدراسة أن الروائي نجح في جعل الحلم مكوّنًا بنيويًا فعّالًا في تشكيل البناء السردى والدلالي للرواية، إذ أسهمت الأحلام في كسر خطية الزمن السردى، وإضفاء طابع تأملي وشعري على النص، فضلًا عن دورها في

تكثيف البعد الرمزي وتوسيع إمكانيات التأويل. وقد أدى هذا التوظيف إلى خلق نص متعدد الطبقات، تتداخل فيه الأزمنة والرؤى والأصوات، فيغدو الحلم أداة لإنتاج المعنى وليس مجرد عنصر حكاوي ثانوي.

ومن جهة أخرى، أظهرت الدراسة أن الحلم أدى وظائف سردية وجمالية وفكرية متعددة؛ فقد أسهم في بناء الشخصيات والكشف عن تحولاتها النفسية والروحية، كما عبّر عن القلق الوجودي والرغبة في الخلاص والمعرفة. وقد استطاع الكاتب من خلال الرؤى الحلمية أن يكشف البعد النفسي للشخصيات، خاصة ما يتعلق بالصراع الداخلي، والاعتزاز، والتوق إلى الطمأنينة الروحية، الأمر الذي منح الشخصيات عمقاً إنسانياً وفلسفياً واضحاً.

وبينت الدراسة –أيضاً– أن العلاقة بين الحلم والواقع في الرواية ليست علاقة انفصال أو تناقض، وإنما علاقة تداخل وتكامل؛ فالحلم لا يلغي الواقع، بل يعيد تأويله من منظور صوفي ورمزي. ومن هنا تتشكل خصوصية التجربة السردية في الرواية، فيتحوّل الواقع نفسه إلى فضاء قابل للتأويل والكشف، بينما يصبح الحلم امتداداً للوعي العرفاني الذي يسعى إلى تجاوز ظواهر الأشياء نحو حقيقتها الباطنية.

وأثبتت الدراسة أن الرواية العلوانية اشتغلت على محكي الحلم بوصفه فعلاً سرمدياً متجاوزاً للزمان والمكان، إذ لم يُقدّم الحلم داخل النص باعتباره حالة نفسية مؤقتة أو مشهداً عابراً فقط، وإنما بوصفه حالة تكعيبية وتجربة وجودية وروحية مفتوحة على المطلق. فالحلم في الرواية يمثل شكلاً من أشكال الخلاص من الألم الإنساني والضيق الوجودي، كما يعبر عن توق الذات إلى التحرر من قيود العالم المادي والارتحال نحو أفق عرفاني أكثر صفاءً. ومن ثم، فإن الحلم اكتسب داخل الرواية بعداً فلسفياً وصوفياً يجعله مرتبطاً بفكرة "النجاة الروحية" والسعي إلى تحقيق التوازن الداخلي.

كما أظهرت الدراسة أن الحلم أسهم في تشكيل البنية الجمالية للرواية، إذ منح اللغة السردية طابعاً شعرياً وتأملانياً قائماً على الرمز والإنجاء. وقد ساعد هذا التوظيف على كسر خطية الزمن السردية، وإضافة نوع من السيولة الزمنية التي تتداخل فيها الذاكرة بالرؤيا، والواقع بالخيال، والحاضر بالماضي. ومن ثم، تحوّل الحلم إلى عنصر جمالي يثري الخطاب الروائي ويمنحه كثافة دلالية وتأويلية عالية.

كما بينت الدراسة أن المحكي السردية العلواني لم يتعامل مع الواقع والتاريخ والحلم بوصفها عوالم منفصلة، بل عمل على اختبارها وإعادة قراءتها من زوايا معرفية متعددة، قائمة على المساءلة والحفر النقدي العميق. فالرواية لا تُقدّم التاريخ في صورته التقريرية أو التمجيدية، وإنما تعيد مساءلته عبر رؤية سردية تتجاوز التقديس الأعمى للتراث، لتكشف عن البعد الإنساني الكامن داخله. ومن هنا، تتجلى الرواية باعتبارها مشروعاً معرفياً وجمالياً يسعى إلى إعادة تفكيك الذاكرة التاريخية والصوفية ضمن منظور نقدي حديث، يقوم على التأمل والتحليل لا على التلقي السلبي أو الانبهار السطحي.

وكشفت الدراسة أيضاً أن توظيف عنصر الحلم داخل الرواية لم يكن توظيفاً اعتباطياً أو زخرفياً، وإنما جاء بوصفه بنية وظيفية مرتبطة بجوهر التجربة الصوفية. فقد شكّل الحلم جسراً رابطاً بين العالم الواقعي والعالم الروحاني، فتحوّل الرؤى الحلمية إلى وسيلة لتحقيق المعرفة والكشف عن الحقيقة الباطنية. وبهذا المعنى، أدى الحلم وظيفة عرفانية واضحة، لأنه مكّن الشخصية الصوفية من الانتقال من الإدراك الحسي المحدود إلى مستوى أعمق من الوعي الروحي، يقوم على الكشف والإلهام والعشق الإلهي.

وأوضحت الدراسة أن محمد حسن علوان جعل من الكتابة الروائية استراتيجية فنية وفكرية للحفر في الذاكرة التاريخية والثقافية، إذ أعاد استحضار التجربة الأندلسية والصوفية داخل قالب سردي حديث، يمزج بين التاريخ والتخييل. ولم يكن استدعاء الهوية الأندلسية مجرد استعادة لماضٍ حضاري منتهٍ، بل جاء بوصفه بحثاً عن هوية إنسانية كونية تتجاوز الحدود الجغرافية والزمنية. فتحوّلت الأندلس داخل الرواية إلى رمز للحلم الإنساني بالفردوس المفقود، وإلى فضاء ثقافي وروحي تتقاطع فيه قيم الجمال والمعرفة والتسامح.

كما توصلت الدراسة إلى أن تفعيل السارد لكونية الهوية الأندلسية أسهم في إنتاج الطابع التجريبي للرواية، حيث تضافر التاريخي بالأسطوري، وتعالق الواقعي بالحملي، ما أتاح للنص انفتاحاً واسعاً على مستويات متعددة من القراءة والتأويل. وقد تجلّى هذا البعد التجريبي في تنوع الأصوات السردية، وتعدد الأزمنة والأمكنة، وتداخل المرجعيات الثقافية والصوفية، الأمر الذي منح النص بنية سردية مركبة تقوم على التشظي والتداخل والانفتاح الدلالي.

وخلصت الدراسة أخيراً إلى أن رواية موت صغير تمثل نموذجاً متميزاً للسرد الصوفي المعاصر، الذي استطاع أن يوظف محكي الحلم بوصفه أداة للكشف والمعرفة وإعادة تشكيل الوجود. حيث نجح محمد حسن علوان في استثمار المرجعية الصوفية وتوظيفها داخل بنية روائية حديثة، تجمع بين العمق الفلسفي والبعد الجمالي، وتمتص الحلم قيمة سردية ودلالية تتجاوز الوظيفة التقليدية للرؤى والأحلام مع تحويل التجربة الصوفية من خطاب تراثي مغلق إلى خطاب روائي حديث، منفتح على الأسئلة الفكرية والإنسانية المعاصرة.

قائمة المراجع:

- ACTES, le livre des contemplations divins, (1999). Arabi, Stéphane Ruspoli' Ib, édition bilingueSUD.
- جماعة من المؤلفين: (2016). وحمي وحيد الصفات، دراسات وشهادات في التجربة الشعرية لأمنية المريني. فاس، المغرب: مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية.
- روجيه شارتييه: ترجمة: طواهرى ميلود. (2017). على حافة الهاوية، التاريخ بين الشك واليقين. بيروت: دار الروافد الثقافية- ناشرون.
- سعيد، بنكراد: (2008). السرد الروائي وتجربة المعنى. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- سعيد، يقطين: (2010). قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود. القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.
- سلان، رمان: ترجمة: جابر عصفور. (1998). النظرية الأدبية الحديثة. القاهرة: دار قباء.
- فرويد، سيغموند: ترجمة: جورج طرايشي، (1987). الهذيان والأحلام في الفن. بيروت: دار الطليعة.
- محمد حسن علوان: (2016). رواية "موت صغير". بيروت، لبنان: دار الساق.
- محمد شوقي الزين: (2008). الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- محمد علي ديري، هيفرو: (2009). جماليات الرمز الصوفي: النفري، العطار، التلمساني. دمشق: دار التكوين.
- محمد، بوعزة: (2014). سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف. الجزائر: منشورات الاختلاف.